

تفسير ابن كثير

هذا تعليم من ﷺ لرسوله صلى الله عليه وسلم في كيفية تلقيه الوحي من الملك فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك في قراءته فأمره ﷺ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له وتكفل ﷺ له أن يجمعه في صدره وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه عليه وأن يبينه له ويفسره ويوضحه فالحالة الأولى جمعه في صدره والثانية تلاوته والثالثة تفسيره وإيضاح معناه ولهذا قال تعالى : { لا تحرك به لسانك لتعجل به } أي بالقرآن كما قال تعالى : { ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه وقل رب زدني علما } ثم قال تعالى : { إن علينا جمعه } أي في صدرك { وقرآنه } أي أن تقرأه { فإذا قرأناه } أي إذا تلاه عليك الملك عن ﷺ : { فاتبع قرآنه } أي فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك { ثم إن علينا بيانه } أي بعد حفظه وتلاوته يبينه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن عن أبي عوانة عن موسى بن أبي عائشة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة فكان يحرك شفتيه] قال : فقال لي ابن عباس : أنا أحرك شفتي كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرك شفتيه وقال لي سعيد : وأنا أحرك شفتي كما رأيت ابن عباس يحرك شفتيه فأنزل ﷺ { لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه } قال : جمعه في صدرك ثم تقرأه { فإذا قرأناه فاتبع قرآنه } أي فاستمع له وأنصت { ثم إن علينا بيانه } فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه وقد رواه البخاري ومسلم من غير وجه عن موسى بن أبي عائشة به ولفظ البخاري فكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعد ﷺ . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو يحيى التيمي حدثنا موسى بن أبي عائشة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي يلقي منه شدة وكان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفتيه يتلقى أوله ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره] فأنزل ﷺ : { لا تحرك به لسانك لتعجل به } وهكذا قال الشعبي والحسن البصري وقتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد : إن هذه الآية نزلت في ذلك وقد روى ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس { لا تحرك به لسانك لتعجل به } قال : كان لا يفتر من القراءة مخافة أن ينساه فقال ﷺ : { لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه } أن نجمعه لك { وقرآنه } أن نقرئك فلا تنسى وقال ابن عباس وعطية العوفي { ثم إن علينا بيانه } تبين حلاله وحرامه وكذا قال قتادة وقوله تعالى : { كلا بل تحبون العاجلة * وتدرون الآخرة } أي إنما يحملهم على التكذيب بيوم

القيامة ومخالفة ما أنزله ﷺ على رسوله صلى الله عليه وسلم من الوحي الحق والقرآن العظيم أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة ثم قال تعالى : { وجوه يومئذ ناضرة } من النضارة أي حسنة بهية مشرقة مسرورة { إلى ربها ناظرة } أي تراه عيانا كما رواه البخاري C تعالى في صحيحه [إنكم سترون ربكم عيانا] وقد ثبتت رؤية المؤمنين ﷺ في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها لحديث أبي سعيد وأبي هريرة وهما في الصحيحين أنا ناسا قالوا : [يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحب ؟ قالوا : لا قال : فإنكم ترون ربكم كذلك] .

وفي الصحيحين عن جرير قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القمر ليلة البدر فقال : [إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر ! فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا] وفي الصحيحين عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله ﷻ إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن] وفي أفراد مسلم عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [إذا دخل أهل الجنة الجنة - قال - يقول الله تعالى : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ! ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ! قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم وهي الزيادة] ثم تلا هذه الآية { للذين أحسنوا الحسنى وزيادة } وفي أفراد مسلم عن جابر في حديثه [إن الله يتجلى للمؤمنين يضحك] يعني في عرصات القيامة ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم D في العرصات وفي روضات الجنات وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا عبد الملك بن أبي هريرة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ينظر إلى أزواجه وخدمه وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله ﷻ كل يوم مرتين] ورواه الترمذي عن عبد بن حميد عن شعبة عن إسرائيل عن ثوير قال : سمعت ابن عمر فذكره قال : ورواه عبد الملك بن أبي هريرة عن مجاهد عن ابن عمر وكذلك رواه الثوري عن نوير عن مجاهد عن ابن عمر ولم يرفعه ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن ولكن ذكرنا ذلك مفرقا في مواضع من هذا التفسير وبالله التوفيق .

وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام ومن تأول ذلك بأن المراد بالي مفرد الإلاء وهي النعم كما قال الثوري عن منصور عن مجاهد { إلى ربها ناظرة } قال : تنتظر الثواب من ربها رواه ابن

جرير من غير وجه عن مجاهد وكذا قال أبو صالح أيضا فقد أبعده هذا القائل النجعة وأبطل فيما ذهب إليه وأين هو من قوله تعالى : { كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون } قال الشافعي C تعالى : ما حجب الكفار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه D ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما دل عليه سياق الآية الكريمة وهي قوله تعالى : { إلى ربها ناظرة } قال ابن جرير : حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري حدثنا آدم حدثنا المبارك عن الحسن { وجوه يومئذ ناظرة } قال حسنة { إلى ربها ناظرة } قال : تنظر إلى الخالق وحق لها أن تنظر وهي تنظر إلى الخالق .

وقوله تعالى : { ووجوه يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة } هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة قال قتادة : كالحة وقال السدي : تغير ألوانها وقال ابن زيد { باسرة } أي عابسة { تظن } أي تستيقن { أن يفعل بها فاقرة } قال مجاهد : داهية وقال قتادة : شر وقال السدي تستيقن أنها هالكة وقال ابن زيد : تظن أن ستدخل النار وهذا المقام كقوله تعالى : { يوم تبيض وجوه وتسود وجوه } وكقوله تعالى : { وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة } وكقوله تعالى : { وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة * تصلى نارا حامية } إلى قوله { وجوه يومئذ ناعمة * لسعيها راضية * في جنة عالية } في أشباه ذلك من الآيات والسياقات